طرائف من ادب العرب

(٧)

ما وراء القبر

« رأى بعض الصلحاء أبا سهل الزجاجي في المنام على هيئة حسنة وكان يقول بوعيد الأبد فقال لهُ كيف حالك فقال وجدنا الأمر أسهل مما توهمناهُ »

اقول وهذا مما يشلج له الصدر وتقرّ به العين و يوافق ما اخبر به وسطاء السر اوليفر لدج في كتابهِ الحياة بعد الموت اذ قالوا ان الناس هناك ينزلون في شيء اشبه بالمطهر يتطهرون به من اوضار هذه الحياة الدنيا وادرانها فيؤهلون للوقوف امام الحضرة القدسية . وان كلّ ما هناك نور وصفاء وعنبر وعبير وسلسبيل واصوات ملائكية كالنواقيس يرنّ بها فضاء الاثير وفلك اللانهاية مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

والظاهر ان صاحب الكشكول فهم من قول الزجاجي « وجدنا الامر اسهل مما توهمناهُ » ان سبب ذلك سعة غفران الله بدليل تعليقهِ عليهِ بابيات لابي نواس في عظم الرجاء وهي قولهُ :

تكثّرْ ما استطعت من الخطايا فانك بالغ ربّاً غفورا
ستبصر ان وردت عليهِ عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تمضّ ندامة كفيك مما تركت مخافة النار الشرورا

ولكن هذا المذهب وما فيهِ من التهتك والخلاعة لا يلائم المكان الذي هو شعار الحياة الاخرى وعنوانها

والحقيقة ان ما وراء القبر يجهلهُ العلم وان عرفهُ الايمان وعندي انهُ ما يجهلهُ العلم الآن سيكشف لهُ على مرّ الزمان . واذا كشفهُ جهت الناسَ من وراء الحجاب حقيقتان ناصعتان هما وجود علة عاقلة للعالم والبقاء بعد الموت ولا يهمّ بعد ثبوت هذين الجوهريين البحث في الاعراض من كمّ وكيف . هذا ما يجب ان يكون لأن ما في الكون من النظام البديع المحفوظ وسط تراكيب لا يحصى عديدها من احقر حشرة واصغر حبة الى اوسع فلك وأبعد شمس — هذا كلهُ لا يمكن ان يكون اعتباطاً بل يدلّ على قصد . والقصد لا يكون بلا قاصد

هذه الاستدلالات واشباهها هي التي خطرت على بال فولتير او غيره من كبار المعطلين فقال وهو يجود بنفسه « ان لم يكن الله موجوداً وجب على الانسان ان يوجده » اي ان يفرض وجوده والاَّ كان الوجود كلهُ كاذباً وصورة وهمية من بنات الخيال كما يقول فريق من العلماء . فاننا في اعمالنا العادية نرجع بالبداهة كل حركة الى محرك وكل ثقب الى ثاقب وكل مسلوب الى سالب وكل مضروب الى ضارب مهما كانت صغيرة لا شأن لها كحركة ريشة او قرية نملة او سلب متاع او ضرب زيد . فكيف نرجع هذا الكون بديع النظام بنواميسه الثابتة وفضائه اللانهائي وأفلاكه المتداخلة وأدواره المتطاولة الى لا شيء او الى علة غير عاقلة ولا نرجعهُ الى علة عاقلة هي علة العلل والقيومة بان تصدر عنها أمثال تلك الاعمال والاوصاف المتناهية في كمالها وجلالها

الانتساب الى جهة الام

« سئل بعض الجند عن نسبهِ فقال انا ابن اخت فلان ... »

الامومة اي الانتساب الى الام مشهور في كل عصر ومصر . فقد انتسب العرب احياناً الى امهاتهم كابن ام الحكم اخت معاوية . واسمهُ عبد الرحمن الثقفي ولكنهُ معروف بكنيتهِ . وبالامس ترجم كاتب عربي كتاباً عن الالمانية اسمهُ الامومة عند العرب حاول مؤلفهُ ان يثبت فيهِ انتشار هذه العادة عند العرب مع ماهو معروف من عصبيتهم وهي انتسابهم الى العصبة اي قرابة الرجل لابيهِ . ومن حين الى آخر ينتسب بعض كبار الفرنجة الى امهاتهم لسبب من الاسباب كأن يكون هذا السبب وصية مورث موسر فيضطر ورثاؤهُ ان ينفذوا الوصية خشية ان يحرموا الميراث . او لاسباب اخرى كما جرى للسر هنري كيبل بنرمن رئيس الوزارة الانكليزية الاسبق فان لفظة كيبل او كمل هي اسرة امهِ التحقهُ عملاً بوصية خالٍ لهُ

على ان اغرب صنوف الانتساب الى الام عند العرب ما رأيت في بعض كتب الادب المشهورة . فقد عثرت فيها غير مرة على هذه العبارة « قال ابن اخت تأبط شرًّا » وبلي ذلك ابيات من الشعر فشوقني هذا التعبير الى معرفة اسمهِ فكلفت من ينقب لي عنهُ[1] فقال انهُ

(١) انا مدين بهذا الشيخ المرصفي نفعني في دار الكتب السلطانية . ففي الصفحة ٢٣٣ من لسان العرب في مادة خلل قولهُ : وقال ابن دريد الخلُّ الخفيف الجسم وانشد هذا البيت المنسوب الى الشنفرى ابن اخت تأبط شرًّا :

فاستنهِ يا سواد بن عمرو ان جسمي بعد خالي لخلُّ

ولست ادري على اي شيء اعتمد صاحب لسان العرب في هذا النسب . فان كشف لنا اديب النقاب عن ذلك كان شكرنا اياهُ بعض ما يجب

الشنفرى فزاد عجبي لانا ان سلمنا بان تابط شرًّا والشنفرى متساويان في الحُضْر وهو العَدْو لم نستطع ان نساوي بينهما في الشعر فان لامية العرب ومطلعها

اقيموا بني امي صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأميلُ

لهي من الشعر العربي الصريح وهي خليقة بالجاهلية التي عاش الشنفرى في اواخرها وقد بوأتهُ مقعداً بين الشعراء يحسدهُ تابط شرًّا عليهِ . وشرحها الشراح من المستشرقين واطنبوا في مدحها . فكيف والحالة هذه ينسب الشنفرى الى تأبط شرًّا لتعريفهِ بهذه النسبة وهو اعرف منهُ الاَّ ان يكون قتل تأبط شرًّا للغول كما ذكرت في المقالة السابقة قد صيرهُ اشهر من الشنفرى . وهذا ما لا ارجحهُ لان عقلاء الكتاب من العرب كانوا يشيرون الى الاغوال وحكاياتها اشارة الساخر المنكر لها . فالمسعودي مثلاً ارجع رؤية بعض الناس الجن الى الظنون الكاذبة والاوهام الفاسدة كما رأيت . والجاحظ استشهد في فصل عقدهُ على تنافر الحروف بالبيت المشهور

وقبر حرب بمكان قفرُ وليس قرب قبر حرب قبرُ

(وقد ذكرتهُ في المقالة السابقة) فقال « ولما رأى من لا علم لهُ ان احداً لا يستطيع ان ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج وقيل لهم ان ذلك انما اعتراهُ اذ كان من اشعار الجن صدقوا بذلك »

وقد رجعت الى ترجمة ردهوس الانكليزية للامية وهي مصدرة بتاريخ الشنفرى ونسبهِ نقلاً عن دي ساسي الفرنسوي فرأيتهُ يذكر فيها حكاية تحالف الشنفرى وتأبط شرًّا وعمر بن براق[1] على قبيلة بجيلة واسرها لهم ثم خلاصهم من الاسر . والحكاية طويلة لم يشر فيها دي ساسي الى صلة قربى بين تابط شرًّا والشنفرى بل كل ما قال عنها انهما

(١) هكذا وردت كتابة اسمهِ « عمر » في هذه الترجمة وفي شرح اللامية للزمخشري . ولكنها وردت « عمرو » في الاغاني ودائرة المعارف العربية

اما الزمخشري فاكتفى في شرح اللامية باشارة خفية الى الشنفرى حيث قال « وقبيلة الازد » . وقال المبرّد في شرحهِ ايضاً ما « الشنفرى بن الاوس بن الحجر بن الازد بن الغوث بن نبت بن زيد بن كهلان بن سبأ » ولم يزد على ذلك

حليفان ومعاصران وهذا غريب ان كانا ابن اخت وخالاً (١)

***

وكان حسان بن ثابت شاعر النبي يفخر بخاله ولا يذكر اسمهُ وكان خالهُ خطيباً قال من ابيات :

ان خالي خطيب جابية الجو لان عند النعمان حين يقومُ
وهُو العقر عند باب ابن هند يومَ نعمانُ في الكبول سقيمُ

وكانوا يعيرون المرء باخواله كما يعيرونهُ باعمامهِ وهم يريدون باخوالهِ امهُ وباعمامهِ اباهُ على الاستعارة قال شاعر منهم

لا تطلبن خؤولة من تغلب فالزنج اكرم منهم أخوالا
لو ان تغلب جمعت احسابها يوم التفاخر لم يزن مثقالا

كما قال الفرزدق يعير جريراً

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت عليَّ عشاري

اما المتنبي فعكس الامر يوم رثى جدتهُ بقصيدة منها هذا البيت

ولو لم تكوني بنت اكرم والدٍ لكان اباك الضخم كونك لي امَّا

اي لو لم يكن ابوك اكرم الآباء لكان انتسابك اليَّ هو أعلى نسب لك

ونظم بعض الشعراء هذين البيتين والغالب انهما مولدان :

لي صاحب ليس فيهِ سوى البلادة عيبُ
سألتهُ عن ابيهِ فقال خالي شعيبُ

---

(١) وقد جاء في الاغاني نسب ثابط شرًّا والشنفرى في فصلين مختلفين وليس فيهِ اشارة الى كونهما قريبين . وكلُّ ما هنالك ان ثابط شرًّا رثى الشنفرى بعد مقتلهِ فقال من ابيات

فدتك ان ذاقيتني بعد ما ترى وهل يلقينَّ من خيفة المقامرُ
لأنتبني في غمرة أدَّعي بها اليك وما راجعًا انا ثائرُ

على ان البيت المذكور في الحاشية الاولى والمنسوب الى الشنفرى يشبه ان يكون رثاء لخالهِ ثابط شرًّا وهذا يخالف رواية الاغاني التي ذكرت ان ثابط شرًّ رثى الشنفرى . ولكن غاية العجب ان لا يذكر صاحب الاغاني لامية الشنفرى بين ما ذكرهُ من ذمرهِ في عشر صفحات كبيرة مع كاد يحملني على الجزم بان هناك شنفريين لم يتفق لنسب الشنفرى الوارد في شرح لاميته لدرعوس وليس الشنفرى الوارد في الاغاني وليس فيهِ ذكر للامية

وفي امثال بعض الامة : عثر البغل من ابوك فقال خالي الحصان » كأنهُ استنكف ان ينتسب الى الحمار فانتسب الى الحصان

وفي بعض الخرافات العربية ان الحمار اصبح ذات يوم ملكاً تدين لهُ مملكة الحيوان فعقد مجلساً من الكبراء والاعيان فنهض خطيبهم يتكلم واستنكر مخاطبة الملك باسمهِ فقال ايها الجواد الأربد فارضاهُ باللفظة الاولى وارضى الحقيقة بالثانية لان الجواد لا يكون أربد

الغلاء في مصر

« قال في كامل التواريخ ان الاسعار غلت بمصر سنة ٤٦٥ وكثر الموت وبلغ الغلاء الى ان امرأة تقوّم عليها رغيف بالف دينار . وسبب ذلك انها باعت عروضاً قيمتها الف دينار بثلاثمائة دينار واشترت عشرين رطلاً حنطة فنهبت من ظهر الجمال فذهبت هي ايضاً مع الناس فاصابها مما خبزتهُ رغيف »

والمراد بكامل التواريخ تاريخ الكامل لابن الاثير وقد رجعت فيهِ الى حوادث السنة المذكورة فاذا بهِ يقول : وقطع (ناصر الدولة بن حمدان) الميرة عن مصر برّاً وبحراً فغلت الاسعار وكثر الموت والجوع وامتدت ايدي الجند بالقاهرة الى النهب والقتل وعظم البلاء حتى ان اهل البيت الواحد كانوا يموتون كلهم في ليلة واحدة . وقطع ناصر الدولة الطريق برّاً وبحراً فهلك العالم »

وسنة ٤٦٥ هجرية توافق اواخر القرن الحادي عشر من التاريخ المسيحي قبل ابتداء الحروب الصليبية بضع سنين . والذي يهمنا من هذا الخبر المقابلة بين الغلاء الماضي والغلاء الحاضر لو امكنت المقابلة فان حكاية المرأة المذكورة لا تفيدنا شيئاً في سبيل هذه المقابلة وتعيين مقدار الغلاء . ولكن ما يهمّ الاشارة اليهِ سبب الغلاء وهو حصر مصر برّاً وبحراً على مثال حصر المانيا في هذه الحرب . على ان مصر في هذا الزمان زمان الحرب التي عمت الارض ولم يسلم من محنها بلد لا تزل بلداً آمناً ووادياً ذا زرع وشاة حراماً سليمة من نكبات الموت والجوع والنهب والقتل والوباء التي لم تسلم منها مصر في زمن ابن حمدان

الرجوم في مصر

« من كتاب المدهش . في حوادث سنة ٢٤١ ماجت النجوم وتطايرت شرقاً وغرباً

كالجراد من قبل غروب الشمس الى الفجر . وفي السنة التي بعدها رجمت السويداء وهي ناحية من نواحي مصر بحجارة فوزن منها حجر فكان عشرة ارطال . وزلزلت الريّ وجرجان وطبرستان ونيسابور واصفهان وقم وقاشان ودامغان في وقت واحد فهلك في دامغان خمسة وعشرون الفاً . وتقطعت جبال ودنت من بعضها بعضاً[1] حتى سار جبل في اليمن وعليه مزارع قوم فاتى مزارع آخرين . ووقع طائر ابيض بحلب وصاح اربعين صوتاً يا ايها الناس القوا ربكم ثم طار واتى من الغد ثم فعل ذلك ثم ما رئي بعدها . ومات رجل في بعض اكوار الاهواز فسقط طائر على جنازته وصاح بالفارسية ان الله قد غفر لهذا الميت ومن حضر جنازته »

اما كتاب المدهش هذا فلا ادري ما هو ولكني قرأت في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي كلاماً يشبه هذا الكلام حيث قيل « وفي سنة احدى واربعين ماجت النجوم في السماء وتناثرت الكواكب كالجراد اكثر الليل . وفي سنة اثنتين واربعين زلزلت الارض زلزلة عظيمة بتونس والري وخراسان ونيسابور وطبرستان واصبهان وتقطعت الجبال وتشققت الارض ... ورجمت قرية السويداء بناحية مصر من السماء ووزن حجر من الحجارة فكان عشرة ارطال . وسار جبل باليمن عليه مزارع لاهله حتى اتى مزارع آخرين » . وبعد ان اشار الى طائر حلب انتقل الى سنة ٢٤٥ فقال « عمت الزلازل الدنيا فاخربت المدن والقلاع والقناطر .... وزلزلت مصر وسمع اهل بلبيس من ناحية مصر صيحة هائلة فمات خلق من اهل بلبيس » الخ

هذا كلهُ جرى في عهد الخليفة المتوكل بن المعتصم . ومعلوم ان ابا تمام عاش في عهد المعتصم قبل عهد المتوكل بنحو ٢٠ سنة ومدحهُ بقصيدتهِ المشهورة التي مطلعها « السيف اصدق انباء من الكتب » ويقال انهُ كذَّب فيها تنجيم المنجمين الذين بشروا المعتصم بالكسر في حرب الروم فانتصر وفتح عمورية فقال ابو تمام في تكذيبهم

ابن الرواية بل اين النجوم وما صاغوهُ من زخرف فيها ومن كذبِ
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنبِ

اقول ولعل الرجوم والزلازل وانخساف الجبال وغيرها من الحوادث الطبيعية الكثيرة التي حدثت في عهد المتوكل هي ما انبأ بهِ المنجمون في عهد المعتصم وكذبهُ ابو تمام فتأخر

(١) هذه قطعة صحيحها « ودنا بعضها من بعض » او « ودنت بعضها من بعض »

الى عهد ابنهِ المتوكل[1] . ولو عاش ابو تمام الى هذا العهد لعارض قصيدتهُ المشار اليها ونكتهُ مات في عهد الواثق بالله نبلهُ[1]

وقد اشار ابن الاثير الى هذه الحوادث حيث قال ما ملخصهُ « وفيها (سنة ٢٤٠) كثر انقضاض النجوم فكانت كثيرة لا تحصى فبقيت ليلة من العشاء الآخرة الى الصبح . وفيها كانت بالري زلزلة شديدة هدمت المساكن ومات تحتها خلق كثير وبقيت تتردد فيها اربعين يوماً . وفيها خرجت ريح من بلاد الترك فقتلت خلقاً كثيراً وكان يصيبهم بردها فيزكمون . وفي سنة ٢٤٢ كانت زلازل هائلة بقومس ورساتيقها فتهدمت الدور ومات ٤٥ الفاً و ٩٦ نفساً . وكان بالشام وفارس وخراسان في هذه السنة زلازل واصوات منكرة ؛ وكان باليمن مثل ذلك مع خسف »

اما الحوادث الطبيعية فتعليلها معروف واما وقوع الطير وصياحها بالعربية او الفارسية وتبشيرها الاموات والاحياء بعفو الله رغفرانهِ فالعهدة فيها على رواتها

اصل الشطرنج

« رأيت في بعض الكتب ان الشطرنج انما وضعها الحكماء لملوك الروم والفرس لانهم لم يكن لهم علم وكانوا لا يطيقون الجلوس مع العلماء لجهلهم واذا اجتمعوا مع امثالهم كانوا يتلاحظون بالبصر فوضعوا لهم ذلك ليشتغلوا بهِ . واما ملوك اليونان وقدماء الفرس والروم فكان لكل منهم كعب عالٍ في العلم وكانوا لا يتفرغون عنهُ لامثال هذه الامور الواهية »

هذا ما قالهُ النكشكول في اصل وضع الشطرنج وقد قرأت في السيكلوبيذيا البريطانية ١٣ صفحة كبيرة عنها . ومما جاء فيها ان اصل وضع الشطرنج مجهول فقد نسبت الى اليونان والرومان والبابليين والمصريين القدماء واليهود والفرس والصينيين والهنود والعرب حتى الارلنديين واهل ايلس وغيرهم . ومنهم من غالى فعيّن وخصص ونسب اختراعها الى يافث أو سام من اولاد نوح أو سليمان الحكيم او زوجة رافان ملك سيلان او هرمس أو ارسطو أو سميراميس او زينوبيا او غيرهم . على ان الرأي المشهور هو ان اصلها هندي . وقد قدر

(١) [الملتقط] والمرجح عندنا ان ما نسب الى المحبين من انشاؤم وضع بعد ما نظم ابو تمام قصيدتهُ هذه وبني على هذا البيت لانهُ يبعد ان يصدق المحبون في الانباء بالمستقبلات والتنجيم فاسد . ويبعد ايضاً ان يجاسروا على تعريف الخليفة من شر قبل وقوعهِ لو رجحنا وقوعهُ

بعضهم عمرها نحو خمسة آلاف سنة . واستعارها الفرس من الهنود فسموها الشطرنج . ويقول الفردوسي ان اقتباسها كان في عهد كسرى انوشروان الاول في القرن السادس للميلاد . ومن راي السيكلوبيديا ان اصل لعبة الشطرنج التي تلعب الآن في اوربا عربي بدليل اسماء بعض القطع وبعض التعبيرات كقولهم الشاه مات

وممن لعبها من الملوك والعلماء هرون الرشيد وشارلمان وتيمور لنك وكارلوس الثاني عشر (ملك اسوج) وفردريك الكبير ونابليون الاول ولينتز وفولتير وروسو وفرنكلين

وفي رواية ان مخترعها حكيم هندي اسمهُ سيسالك اخترعها لاصلاح حال ملكهِ فغاز بامنيتهِ وسرّ الملك بالاختراع واراد ان يحسن الى سيسالك فامرهُ ان يقترح شيئاً فاقترح ان يوضع لهُ حبات قمح في ٦٤ مخزناً في الاول حبة وفي الثاني حبتان وفي الثالث اربع وفي الرابع ثمان وهكذا على سلسلة هندسية الى الآخر فاستصغر الملك هذا الطلب في مبدإ الامر ثم وجد ان ليس في مملكتهِ كلها قمح يسدّ طلب سيسالك

***

هذا ما رأيت ان اقتبس من كتاب الكشكول في سبع مقالات . وهو قليل اذا جمع فربما لم يبلغ نصفها والنصف الباقي شرح وتعليق . ويقال بالاجمال ان لغة الكشكول وسط ليست بالبليغة ولا الركيكة والمادة شائعة تجد مثلها في العقد الفريد ومحاضرات الادباء والمستطرف والمثل السائر وخزانة الادب وغيرها . ولا غرابة فالمصدر واحد وهو ان الكتّاب المتقدمين رأوا بضاعتهم رائجة أصحيحاً كان ما كتبوهُ او موضوعاً والموضوع اقرب الى ذوق المتفكهين من القراء ملوكاً كانوا او سوقة فاكثروا من الموضوع ونقلوا عن الفرس والسريان واليونان وجاء بعدهم المتأخرون فنقلوا غير مميزين بين الغث والسمين وقلّ ان قام بينهم المنتقدون مثل ابن قتيبه والمسعودي فراجت الخرافات مع الحقائق . وقارئ الكتاب منها كأنما قرأ الآخر . ومع ذلك رأيت ان اقتبس منها ما لم يرد في الكشكول وأعدّي عن الباقي . وربما بدأت بالعقد الفريد لابن عبد ربهِ

(نقيب)